تجربتي في ترجمة رواية "ليل الأصول" لنور الدين سعدي

أحمد منور

كان آخر النصوص السردية التي قمت بترجمتها إلى اللغة العربية هي رواية (La nuit des origines) للكاتب الجزائري باللغة الفرنسية نور الدين سعدي، وتدخل هذه الترجمة في إطار سنة "الجزائر عاصمة الثقافة العربية"[xxxvii]، وهي رواية الكاتب الثالثة، وآخر ما أصدر، حيث نُشرت هذه الرواية سنة 2005 ضمن منشورات (Aube) بباريس، وأعادت دار البرزخ بالجزائر نشرها موازاة مع الترجمة العربية.

والكاتب نور الدين سعدي ــ لمن لا يعرفه ــ هو من مواليد مدينة قسنطينة، حيث نشأ ودرس، وأكمل تعليمه في سنوات السبعينيات بالجزائر العاصمة، وأصبح بعدها أستاذا للقانون بجامعة الجزائر إلى سنة 1994، ثم هاجر بعد هذا التاريخ إلى فرنسا حيث يقيم حاليا، ويعمل بجامعة أرتوا بشمال فرنسا.

صدر له قبل "ليل الأصول" رواية (Dieu-le-fit) سنة 1996، و(La maison de lumière) سنة 2000. كما نشر أعمالا أخرى ذات طابع فكري، فني، وصحفي.

ورواية "ليل الأصول" تدخلنا في عالم غريب، يوحي لنا كاتبها فيها بالعلاقة الموجودة بين فعل الكتابة وبين مفهوم القدر،

ــ كما يقول أحد النقاد ــ حيث يشترك المفهومان في كلمة واحدة باللغة العربية هي كلمة "مكتوب". و"ليل الأصول" تروي قصة امرأة جزائرية تدعى عبلة، فرت من الجزائر، بتأثير ضغوط قوية من بعض أفراد أسرتها، لتختار باريس منفى لها. ساقها القدر ذات يوم إلى سوق "سانت أوان" للتحف والأشياء القديمة، أو "سوق البرغوث"، ــ كما يسميها الفرنسيون ــ بحثا عمن يشتري منها مخطوطا قديما وثمينا لجدها الأكبر، شيخ طريقة بن

الحملاوي، أتت به معها من الجزائر، وحينما دخلت إلى أحد دكاكين السوق فوجئت بوجود سرير مذهب، من الطراز القديم، شديد الشبه بسريرها الذي ورثته عن جدها، وتركته وراءها في قسنطينة، فتعلقت بهذا السرير، وتعرفت بصاحب الدكان، وبصديقه علي أو "Alain". وحول المخطوط والسرير، اللذين يرمزان إلى الأصل أو الهوية، ينسج الكاتب تفاصيل حكايات متداخلة ومتقاطعة عن كائنات وأشياء، وشخصيات، تلتقي كلها حول موضوع حب مستحيل، ينتهي نهاية مأساوية، ينشأ بين عبلة وبين علي، الذي جاء إلى الوجود نتيجة علاقة سفاح بين جندي فرنسي أثناء الثورة التحريرية، وامرأة جزائرية تدعى "عائشة"، ومن هنا جاء اسمه المزدوج علي، وألان.

أما الفضاء الذي تجري فيه حوادث الرواية فهو سوق التحف والأثاث القديم في شمال باريس من جهة، ــ كما سبقت الإشارة ــ ومدينة قسنطينة من جهة أخرى، حيث يرسم الكاتب، لهاتين المدينتين صورة حقيقية، ولكنها في الوقت نفسه صورة خيالية، وغريبة، ومدهشة، وذلك بعد أن أعاد اختراع المدينتين من جديد، ووضع لهما ديكورا من نسج خياله، وبعث فيهما الحياة والحيوية من رصيد ذكرياته، ومن خلال شخصياته وأحداث روايته، وخلق من كل ذلك عالما مدهشا، متعدد الألوان، منسجم الأجزاء، مطبوعا بطابع الغرابة، ومثيرا للفضول.

وهكذا، ومن هذا التقابل، أو الازدواجية التي نراها في المكان، وفي الشخصيات، وفي الألوان الثقافية، واختلاف القيم الاجتماعية، التي صورها الكاتب، يمكننا القول بأن رواية "ليل الأصول" هي رواية "مثقفة"، ــ إن صح التعبير ــ تغترف من ثقافتين كبيرتين، ولغتين، وفضائين، مختلفين اختلافا كبيرا، متوازيين حينا، ومتداخلين حينا آخر، ومتصادمين في بعض المرات، بين فضاء قسنطينة وفضاء باريس، بين مجتمع قسنطينة البورجوازي الذي خرجت منه عبلة هاربة، بسبب تحكم التقاليد فيه إلى حد إلغاء المشاعر الشخصية، وقتل الرغبات الإنسانية، وبين المجتمع الباريسي المتحرر من كل القيود، الذي يشعر فيه الإنسان بحريته الشخصية إلى حد الإشباع والضياع، ويبحث فيه عبثا عن علاقات أسرية دافئة، مثل ألان ابن ملجإ الأيتام، الذي كان يحلم بالعثور في يوم ما على حقيقة والده. وليس

ألان في الرواية، إلا عينة من العديد من العينات التي قدمها الكاتب والمتكونة أساسا من المهمشين، المنحدرين من أصول غير فرنسية، ومن الغجر، والعرب، والمنبوذين اجتماعيا، والفاشلين في حياتهم العاطفية، أو المهنية، وما إلى ذلك.

كل هذه الخصائص في الرواية جعلتني أعجب بها، وأفكر في ترجمتها منذ قراءتي للصفحات الأولى فيها، بل وأتحمس لترجمتها، خاصة أن الأجواء التي يصورها الكاتب في روايته كانت كلها مألوفة بالنسبة إلي، وأعرفها حق المعرفة، حيث أنني نشأت، مثل الكاتب، في مدينة قسنطينة، وأعرف كل شبر فيها، كما كانت لي، من جهة أخرى، فرصة الدراسة في ثمانينيات القرن الماضي في باريس، لمدة تزيد عن ثلاث سنوات، وهذا أيضا أفادني بمعرفتي لكل الأماكن التي صورها الكاتب في روايته. لهذا قررت أن أرفع التحدي.

غير أنه، يجب الاعتراف أنني حينما باشرت الترجمة، بدا لي أن المسألة ليست بالسهولة التي كنت أتصورها، ففضلا عن مواجهتي لبعض الإشكالات العامة التي تواجه أي مترجم لعمل روائي غير عادي، وأعني بغير العادي : التقنية الروائية التي اتبعها الكاتب، وأسلوب الحكي عنده، الذي يحتاج إلى وقت لكي يستأنس به المترجم، ويعرف خصائصه، واجهتني إشكالية التعامل مع قاموس لغوي نوعي استعمله الكاتب في الجزء الباريسي من الرواية، وأعني به أسماء التحف القديمة التي يزخر بها النص، الذي يجري قسم كبير منه بسوق الأشياء القديمة، المعروف باسم سوق "سانت أوان" (Le marché aux puces de Saint-Ouen)، فشكّل هذا الجانب تحديا كبيرا لي، حيث كان علي أن أقرِّب إلى القارئ بالعربية، مفردات ذلك القاموس ــ التي لا أجد لها في معظم الأحيان مقابلا باللغة العربية ــ مرة بترجمة المعنى، و مرة بتعريبه، وأخرى بنحته أو اختراعه ، مراعيا في الوقت نفسه أن لا أبتعد عن الأصل، وأن لا يؤثر ذلك سلبا على النسيج الروائي، فيجعله غامضا، أو غريبا، ولم يكن الأمر سهلا، ولم تكن المحاولة تكلل دائما بالنجاح.

في البداية، واجهتني مشكلة ترجمة عبارة (Le marché aux puces) ، هل علي أن أترجمها بـ"سوق الأشياء القديمة"، أم بـ"سوق التحف القديمة"، أم بعبارة أكثر "فصاحة" وهي سوق "سقط المتاع"، وفي جميع الحالات، وجدت العبارة غير دقيقة، فإذا استعملت

عبارة "الأشياء القديمة" أو "سقط المتاع" فإني أكون قد نزعت عنها الجانب القيمي، فليس كل قديم ذا قيمة، وإذا استعملت عبارة "التحف القديمة"، أكون قد أسبغت على كل الأشياء القديمة قيمة كبيرة، أما إذا ترجمت عبارة (Le marché aux puces) بـــ "سوق البرغـــوث" فـــإن هـــذا سيكون شيئا مضحكا، لأنني لم أراع ثقافة اللغة المنقول إليها.

الصعوبة نفسها وجدتها في ترجمة كلمة "Antiquaire" التي نجد لها باللغـــة الفرنســـية معنيـــين، الأول يقـــول: Personne qui s'adonne à l'étude, à la recherche des objets antiques. Archéologue ➔ والثاني يقول: Collectionneur d'antiquités. . وقد بحثت في قاموس مـــزدوج اللغة فرنسي/عربي، فلم أجد فيه إلا كلمتين هما antique التي شرحها بـــالمترادفتين : قـــديم، وعتيق، و Les antiquités التي شرحها بـــ: الفنون القديمة. ونلاحظ هنا أن المعنى الأول قديم، أو عتيق عام جدا، والثاني الفنون القديمة ضيق، لأنه يحصر المعنى في الفنون وحدها. وكان علي أن أترجمها في السياق الذي جاء في الرواية بـــ "بائع التحـــف"، أو "جـــامع التحـــف"، وتصبح كلمة "قديمة" معها زائدة.

كذلك الشأن في لفظة Brocanter التي يشرحها القاموس الفرنسي بعبارة: Faire commerce d'objets anciens، و لفظة Brocanteur التي يشـــرحها بعبـــارة: Personne qui brocante ويوســـع في معنى اللفظة، فيضيف إليها مترادفات أخرى أكثر اختصاصا، فنجد أن معنـــى Brocanter ينطبق على: Antiquaire, bouquiniste, fripier, revendeur، بحيث يصبح معناها "بائع التحف"، أو "جامع التحف"، و"بائع الكتب"، و "بائع الثياب القديمة"، و"معيد البيع"، وفي جميـــع الأحـــوال يكون لزاما علينا أن نترجمها بألفاظ مختلفة، فبائع الكتب، وبائع الثياب لا يجمعهما في الواقع إلا اشتراكهما في البيع. ولا نجـــد هـــذه المترادفـــات مجتمعـــة فـــي القـــاموس المـــزدوج فرنسي/عربي، ولكننا نجدها في أماكن متفرقة بحسب الحروف التي تبدأ بها.

وهناك كلمة عامية شائعة في بعض البلاد العربية تؤدي معنـــى "التحـــف القديمـــة" أو "الأشياء القديمة" وهي كلمة "روبابيكيا"، وهي لفظة أعجمية، كما هو واضح ــ وأرجح أنهـــا كلمة إيطالية ــ وهي جامدة لا يمكننا الاشتقاق منها، ولا تتماشى وميزان الصرف العربـــي، ونجد في اللغة الفرنسية كلمة قريبة منها لفظا ومعنى، وهي كلمة (Se rebecter) بمعنى تعافى

صحيا أو ماليا، أو (rebecter) بمعنى:à Redonner du courage, de la force, de la santé. والعلاقة هنا واضحة بين معنى أعاد له قوته، أو صحته، وبين إصلاح الشيء القديم، وإعادة استعماله.

هذا على مستوى التسميات العامة للتجارة في الأشياء القديمة، أو جمعها، أو إصلاحها، وقد أتيت بها على سبيل المثال، وبطبيعة الحال، لا يمكننا في مثل هذا المقام، أن نحصر قاموس هذه الممارسة التجارية، أو المتعلقة بالهواية وفن اقتناء التحف القديمة. ورواية "ليل الأصول" تزخر بهذا القاموس، وتتوزع على عدة ميادين، منها: الألبسة، والحلي، وأدوات الزينة النسوية، والأثاث المصنوع من الخشب، والخزف، والمصنوعات النحاسية، والرخامية، والتماثيل من مختلف المواد، والمصابيح الكهربائية، والساعات الحائطية، واللوحات الفنية، والتصوير الفوتوغرافي، والأفلام السينمائية، والآلات الموسيقية، والبطاقات البريدية، والكتب، والمخطوطات، والخرائط، والأدلة السياحية، وما يتفرع عن كل مجال من هذه المجالات من أنواع، ومسميات، وأوصاف، بحيث يشكل قاموسا قائما بذاته. والكاتب يمتلك ثقافة واسعة في هذا المجال، وقد كانت لي فرصة للقاء به في أكتوبر الماضي، على ما أتذكر، بالمركز الثقافي الفرنسي، وسألته عن ثقافته في هذا المجال، فأخبرني أن له صديقا بسوق التحف في بباريس، وأنه تعلم منه أشياء كثيرة في هذا المجال.

وأسارع هنا إلى القول أن الروائي كان شديد البراعة في تعامله مع كل هذه الأشياء الجامدة، والغريبة على معظم القراء، بحيث استطاع في كل مرة أن يضفي عليها لمسات فنية مليئة بالمشاعر الدافئة، لا يتقنها إلا من يتمتع بقدر عال من الحس الفني، وقد وزع كل ذلك بشكل متناسب، وبلمسة فنية تبعث الحياة في تلك الأشياء الجامدة. يقول مثلا على لسان أحد أبطاله المشتغلين بتجارة التحف: *((إن هناك اتصالا خفيا بين الكائنات الحية وبين الأشياء.. فالناس يأتون إلى السوق لكي ينظروا ويلمسوا ، ويجسوا، ويلاطفوا الأشياء، ويقلبوها وجها وظهرا، ويحسوا بها، وفجأة يحدث في داخلهم شيء، فيرغبون في الحصول على هذه الأباجورة، أو هذه المنضدة التي تكسوها طبقة من أوساخ السنين، لأنها ببساطة أثارت فيهم*

ذكرى ما... وفي المبيعات يحدث لي الشيءَ نفسه، فأتألم كثيرا لفراق بعض القطع الأثرية، بحيث يمكننا القول أن بعض الأشياء لا تريد أن تفارقنا...)). ص 74.

وعلى العكس من هذا، حينما رحت أترجم الجزء المتعلق بقسنطينة، وحديث الكاتب على لسان بطلته عن العادات والتقاليد، وحفلات الأعراس، والملابس، وطقوس المآتم، وما إلى ذلك، لم أجد أية صعوبة، خاصة أن العديد من مسميات الأشياء يذكرها الكاتب بلفظها العربي، مثل أسماء الملابس، كالبرنوس، والقندورة، والحنة، وبعض الألقاب مثل "نينة" (الجدة) و"سيدي"(الجد)، وما إلى ذلك. ولم أجد صعوبة أيضا في توظيف الكاتب في روايته للموروث الصوفي، ولبعض طقوس الطريقة الشاذلية، التي يعود منشؤها إلى عبد السلام بن مشيش في المغرب الأقصى في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، والتي نقلها تلميذه أبو الحسن الشاذلي إلى تونس، والشرق الجزائري، لتنتهي عند أسرة الشيخ بلحملاوي في قسنطينة، وهو جد عبلة بطلة الرواية، التي ورثت عنه مخطوط أسرار وأذكار الطريقة، وفكرت في بيعه للمكتبة الوطنية بباريس، بسبب ظروفها المادية الصعبة، وكان ذلك مصدر صراع داخلي حاد بالنسبة إليها، انتهى بها إلى الانتحار دون أن تتجرأ على بيعه.

وبخصوص الأذكار والمدائح التي أوردها الروائي، وبذل جهدا واضحا في نقلها إلى الفرنسية، فقد فضلت من جهتي أن أعود إلى أصلها بالعربية، ونقلتها من كتاب "الصلاة المشيشية" المنسوبة إلى عبد السلام بن مشيش، غير أنني، بطبيعة الحال، اكتفيت بما أخذه الكاتب منها.

وحتى ما تعلق بالمخطوط أيضا، وقد أسهب الروائي في وصفه على لسان خبيرة المكتبة، وكان الحديث عنه وعن مواصفاته، يتكرر باستمرار، لم أجد فيه أية صعوبة تذكر، لأن المفردات المتعلقة بالمخطوطات متوفرة عندنا، ودقيقة، ومن ثمة لم يعوزني فهمها، ولا تعبت في البحث عنها، حول نوعية الخط مثلا، والزخارف التي زخرف بها الخطوط، والورق الذي خط عليه، ونوعية الصمغ، والألوان التي احتوى عليها، وما إلى ذلك، مثال ذلك :

((وأخرجت (أمينة المكتبة) المخطوط من غلافه المخملي، وراحت تختبر بإصبعها جلد التغليف، ثم فتحت بحذر هامش الطي، بعد أن وضعت قفازها الأبيض، وظلت مدة طويلة تختبر رسوم التجليد المدمقسة، وتجس الزخارف المذهبة، البالية لتقول: إنه من جلد الجدي، والرسوم فيه منقوشة على البارد ... إنني لم أر من قبل أبدا مثل هذه الزوايا المقوسة، وهذا الوشي، وهذه النقوش ، إلخ...))

ونلاحظ هنا كيف يقدم الكاتب المخطوط بطريقة سردية تتضمن التفاصيل، ولكنها لا تبعث على الملل.

ولا أريد أن أثقل عليكم هنا بتقديم أمثلة أخرى، ولكنني لا أريد أن أمر، دون أن أقف عند عنوان الرواية. فعندما شرعت في ترجمتها لم أفكر طويلا في العنوان، فترجمته حرفيا تقريبا: (La nuit des origines) ترجمته: "ليل الأصول"، واعتبرت ذلك مسألة مؤقتة، على أن أعود إليه بعد الانتهاء من الترجمة، لأدقق في معناه، وأجعله أكثر جاذبية، ما استطعت، حتى ولو جاء مخالفا للأصل، وغير متطابق معه، وهذا شيء معمول به، ومعروف لدى المترجمين، لأسباب تتعلق بجمالية العنوان، وجاذبيته في الثقافة المنقول إليها، وحتى لأسباب تجارية، وهذا بعد التشاور ــ بطبيعة الحال ــ مع المؤلف، ومع الناشر أحيانا، إلا إذا جاءت الترجمة الحرفية للعنوان مناسبة، ولها من قوة الدلالة والوضوح، بالقدر الذي هو عليه في الأصل، وهذا لا يحدث ــ في الواقع ــ إلا نادرا، لأن الترجمة، كما يعلم أهل الاختصاص، ليست نقلا لمفردات وتراكيب لغوية، وإنما هي بالأساس نقل لثقافة، إلى ثقافة أخرى مغايرة.

وهكذا اختزلت العنوان وجعلته هكذا: "ليل الأصول"، أي في كلمتين، عوضا عن ثلاث كلمات كما هو في الأصل (La nuit des origines)، مراعيا بالخصوص أن لا يكون ثقيلا على اللسان، ولكن، ومع المضي في الترجمة، ومع الوقت، تعودت على هذا العنوان، وأصبح مألوفا بالنسبة إلي، وصار في الأخير هو العنوان النهائي الذي ظهر على غلاف الرواية. وهذا عيب التعود على الشيء، فحين يتعود المرء على رؤية شيء ما تضعف معه تدريجيا دقة الملاحظة، وينصرف الذهن عما فيه من نقص، وهذا ما حدث لي، فاختزالي للعنوان،

تجنبا لثقل العبارة، جعلني أغفل عما في العنوان الأصلي باللغة الفرنسية من دلالة على معنى الزمن، ففي اللغة الفرنسية يستعمل "الليل" للدلالة على الزمن البعيد الذي لا يمكـــن تحديـــده، فيقال *La nuit des temps* التي يشرحها القاموس بقوله: Une époque très reculée, dont on ne sais rien. . وعلى ضوء هذا، كان ينبغي أن يترجم العنوان بـــعبارة أدق، مثل: "ثقل الماضـــي"، أو "قيود إرث الأسلاف"، وهذا يحقق لنا، من جهة، مبدأ دقة النقل، واحترام النص الأصـــلي، ولكنه وحتى وإن كان أكثر دقة من "ليل الأصول"، فإنه يخل بجماليـــة العنـــوان، وجاذبيـــة العبارة في اللغة العربية.

وعلى أية حال لدي الكثير مما أود أن أقوله عن ترجمتي لهذه الرواية الجميلة، ولكـــن أكتفي بما قدمته، وبالقول: إن كل نص نقدم على ترجمته يعطينا فرصة، لاختبـــار أدواتنـــا، ويشعرنا بالمتعة، ونحن نذلل تلك الصعاب التي تجابهنا فيه، ويكسبنا تجربة جديدة، ويـــدفعنا إلى البحث عن تجربة أخرى أكثر إثارة، وأكثر تحديا لقدراتنا. خاصة إذا كان نصا جيدا، من مثل رواية "ليل الأصول"، التي أؤكد مرة أخرى، على أنها رواية متميزة، استطاعت بلمســـة سحرية من كاتبها، أن تجعل الشرق والغرب يلتقيان، رغم تأكيد "كيبلينك" أنهما لا يلتقيان.